مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 20 (2014) : 71 – 79
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

الثابت الرسائي في قصيدة محمد الفيتوري
(إلى ابن بيلا ورفاقه)

أ/ابن سعد محمد السعيد

جامعة غرداية

غرداية ص ب 455 غرداية 47000 ,الجزائر

في الموضوع: قمن بمعاشر الأدباء الجزائريين وغيرهم أن يقدسوا الثورة الجزائرية ويتغنوا بها.

ذلك أن الثورة المباركة تجلت فيها المعاني البطولية التي تحرك الإنسان أياً كان، كلما ذكر "نوفمبر"، "الأوراس" في صورة البطولة والفدا.

إنها ثورة عملاقة خلقت الإنسان الجزائري خلقا جديدا، وبعثت في الأمة العربية والإسلامية حياة، لما تحمله من قيم إنسانية سامية، إنها صورة بدر بحق.

فلا غرو إذ أن ينبهر بها الأدباء من أمثال سليمان العيسى، محمود درويش، عبد المنعم عواد، حسن فتح الباب، محمد الفيتوري وغيرهم من الأدباء العرب أو أدباء الغرب ومفكريهم، مما يمجد العلاقات القائمة بين الشعوب وأواصر الاتصال، يقول محمد الفيتوري:

سبع سنين، وأياديكم تطرق باب التاريخ
تبني هرما للحرية
تبنيه بعظام الشهداء
بإرادة مليون ضحية
سبع سنين، وبلاد جميلة رافعة الرايات
سبع سنين، والنار تضيء خطى الأحرار
وتمزق ليل البشرية
إني أحني رأسي كبرا
إني أخفضه في إكبار
يا بن بيلا...
لكن العار، وخيبة سبع سنين
العار (لديجول) وباريس
العار لأعداء الثورة
فالثورة، مازالت تكسو
قمة الأوراس، وتسقيها
والثورة مازالت تمشي
فوق جماجم جلاّديها[1]

ألفينا هذه القصيدة بحرا زاخرا بصياغة لسانية لافتة يجدر الوقوف عندها، ذلك ما نهدف إلى تحقيقه من خلال هذه الورقة.

الفيتوري:

إنه محمد الفيتوري الشاعر الإفريقي السوداني ولد سنة 1930 في بلدة الجينة عاصمة دار مساليت[2] الواقعة على حدود السودان الغربية، من أب سوداني "الشيخ مفتح رجب الشيخي الفيتوري"، وأم مصرية "الحاجة عزيزة علي سعيد"،[3] من جد زنجي من أعالي بحر الغزال.[4]

نشأ في منطقة القباري بالإسكندرية، درس بمدرسة الأخلاق لحفظ القرآن الكريم.

درس الإنشاء والحساب والأناشيد، تابع دراسته بعد الحرب العالمية الثانية في المعهد الابتدائي حتى عام 1947 ثم التحق بالمعهد الصيني التابع للأزهر إلى عام 1949 ثم الأزهر الشريف إلى غاية سنة 1953.

انتقل بعدها إلى كلية العلوم بجامعة القاهرة فرع الأدب والدراسات الإسلامية حيث انقطع دون أن ينال شهادة ليشتغل بالصحافة، بحيث أصدر ديوان "أغاني إفريقيا" سنة 1955، كتب في غير صحيفة أثناء إقامته بالقاهرة.

انتقل إلى السودان سنة 1958 ليعمل في الصحافة السودانية، اشتغل بلبنان رئيس تحرير مجلة "الثقافة العربية" كتب في مجلة "الأسبوع العربي" وجريدة "بيروت" وشارك في إصدار مجلة "الديار".

شغل وظيفة خبير إعلامي في جامعة الدول العربية بالقاهرة، بحيث كان يراها الوظيفة الأقرب إلى نفسه كونها تتيح له قدرا من الحرية والحركة والانطلاق.

سافر إلى ليبيا عام 1974 ثم دمشق.

العوامل المشكلة لثقافته:

نشير إلى بعض هذه العوامل والتي نعتقد أن لها

أثرا في صناعة الشاعر وأثرت في توجيه فكره وقناعاته.

* إن الفيتوري امتزج في شخصه: الزنج، والسودان (قبائل)، والحجازية المصرية.

* العوامل النفسية والاجتماعية، من سواد لون وقصر قامة (نظرة الأبيض إلى الأسود ومعاملته إياه في أغلب الأحيان بخاصة عند يغيب الوازع الديني والإنساني المعتدل، يقول: "لقد فضضت سر اللغز، سر المأساة التي ولدت معي، أنني قصير وأسود ودميم".[5]

تقول إيمان يوسف: "وقف الفيتوري أمام مرآة ذاته، فرأى عيوبه الجسدية تنعكس على أعماق ذاته، فشعر بالنقص، والجنون وكتب الشعر، أو كتب جنون كلمات، وما عرف -فيما بعد- إذا يؤرخ جنونه أو يكتب شعرا!".[6]

فقضية اللون عذبته كما عذبت أمثاله من الشعراء السودانيين، فكان يشعر دائما بالنقص يقول: "دائما تحاصر في أعينهم... ضحكاتهم... تتابعني حيثما أسير، إنهم يسخرون مني، منظري يثير فيهم روح السخرية والاستهزاء".

فقير أجل... دميم دميم
بلون الشقاء، بلون الغيوم
يسير فتسخر منه الوجوه
وتسخر حتى وجوه الهموم
فيحمل آلامه في جمود
ويحصن أحزانه في وجوم
ولكنه أبدا حالم
وفي قلبه يقظات النجوم[7]

يجمع في هذا خصائصه البيولوجية والسيكولوجية، التي تركت آثارها في فكره.

* حياته بالإسكندرية: ذات الموقع الجغرافي التي جعلها حلقة اتصال بين الشرق والغرب، بحيث امتزج بأهلها العرب القادمون من شمال إفريقيا، وشعوب البحر الأبيض المتوسط النازحين إليها في العصر الحديث من اليونان وإيطاليا وفرنسا، كان لهذا الامتزاج أثر خاص في بيئتها ثقافيا واجتماعيا. على أن الإسكندرية إضافة إلى ذلك لم تكن بمنعزل عن الحركة الأدبية العامة التي تمت بجذورها المتينة إلى التراث العربي القديم من جهة والإنتاج العربي الحديث[8].

* عزلته وانطوائه على نفسه: لقد كان كل شيء حوله يؤكد أن التفرد والعذاب والغربة أشد الصفات التصاقا بواقعه البيئي والاجتماعي والنفسي، مما جعله يؤثر الانطواء على نفسه، حتى نظر إليه الكثيرون متكبرا وشاذا ومزهوا بنفسه، كان يكره الأضواء والضوضاء والزحام، إلا أنه من شأن العزلة أن تؤجج القريحة الشعرية والإبداع الأدبي. "كانت بشرته السوداء تقيم بينه وبين المدينة التي يحيا فيها -الإسكندرية- حاجزا كثيفا... وتحرمه المشاركة في الاندماج ويؤجج في باطنه مشاعر مريرة صفراء ويشحذ حساسيته"[9].

* حفظه للقرآن الكريم على الرغم مما عناه في ذلك، يقول في مقدمته "حول تجربتي الشعرية وأذكر أنه عانى في حفظه -القرآن الكريم- كثيرا، كم من امتحان رسب فيه وعوقب على نسيانه أشد العقاب، من عصا شيخه الضرير السمين، كانوا يعلقونه من قدميه في الفلكة[10] لتبدأ عصا الفقيه حركتها البندولية صعودا وهبوطا فوق قدميه، دونما هوادة أو استجابة لصرخاته وأناته، ولم يكن سيدنا يكف عن ممارسة هذه العلمية إلا أن تكون قد تعبت ذراعاه"[11]، والقرآن يمد صاحبه بالأصالة اللغوية والطلاقة التعبيرية، والدقة الشعورية.

* جلوسه لجدته[12] التي سبكت في روحه خيالات من آفاقها الشعرية الغامضة، بما كانت تبث في شعوره من حكايات وأساطير، كونت لديه نواة ثقافته تابع الفيتوري رحلتها فيما يعد[13].

* اطلاعه على عيون الشعر العربي متأثرا ومعجبا بأعلامه، كعنترة الذي وجد فيه نفسه، إذ أصبح مصدر قوة له، يقول:

أسود لكني حرّ أمتلك الحرية

كما وقعت عيناه على رحلة بني هلال من الشرق إلى الغرب، وعلى كثير من السير والقصص:[14]كسيرة سيف بن ذي يزن، وحمزة البهلوان، وقصة ألف ليلة وليلة وغيرهم، ولم يكتف بهذا بل اطلع على أعمال غير العرب من أمثال: شيرلوك هوملز، وطرزان، وأرسين لوبين وجوته وغيرهم[15].

* دراسته بالأزهر: على الرغم من أنه لم يتمها بشهادة، فقد مكنته من مواصلة التعمق في الاطلاع على التراث الشعري العربي، فقرأ لطرفة، وامرئ القيس، وعمرو بن كلثوم، وغيرهم، ثم للشعراء الصعاليك،كما قرأ للشريف الرضي، والمعري، والمتنبي، وابن الرومي، وأبي تمام، ثم قرأ للمحدثين بخاصة منهم جبران والذي أعجب كثيرا بتجربته الشعرية وتأملاته الفلسفية العميقة، إذ وجد فيه نفسه هو الآخر، لأن جبران عاش غريبا، حزينا، منكسر القلب، وكذلك كان الفيتوري غريبا ووجهه يقطر حزنا.

ونراه يلتهم من شارل بودلير قدرته على خلق الصورة الشعرية وتجسيد المشاعر والأفكار وتكثيف الأوضاع النفسية والاجتماعية، يقول: "إن لديه بصيرة تنفذ إلى ما وراء الأشكال والمظاهر..." لكنه يقول عن بودلير: "إنه رائع ولكن... الأروع معبودته الأرضية السوداء جان ديفال[16] إنها عقدة اللون المؤصلة.

كما قرأ لبوشكين، مايا كوفسكي ورامبو، وناظم

حكمت التركي وغيرهم كثر، كل هذا صقل الموهبة.

* عمله بالصحافة والسياسة اللذين جعلاه يخوض غير تجربة، ويدخل الحياة من بابها الواسع ويذوق معاناة أخرى، وينفتح على العالم ليصبح يعي الحياة ومشاكل المجتمعات بأعمق ما يمكن، ليخلص إلى حد ما من عقدة النقص، وهذا أكسبه قدرا من الوعي بحقائق السياسات العربية والفهم العميق لأسرارها وحركاتها، مما ساعد على توسع تجربته الشعرية، فنراه يقول:

يا أخي في الشرق، في كل سكن
يا أخي في الأرض في كل وطن
أنا أدعوك...
فهل تعرفني[17]

* ومما فتق شاعرية الفيتوري انخراطه في الأندية الأدبية ومحافلها، ذلك ما أتاح له أن يتعرف إلى العالم عن كثب، يفهمه، يحاوره، يؤثر فيه، يطلع على مختلف التيارات الفكرية واتجاهاتها، بحيث اتسعت ثقافته[18] فخرج بهذا من الانقباض داخل نفسه إلى الخروج إلى الحياة الفسيحة.

* قبل أن نبرح الكلام عن العوامل التي ترعرع فيها الفيتوري شاعرا، نشير إلى ثقافته الصوفية، التي أصبحت جزءا من كيانه، عبر عن ذلك بصراحة في القصيدة التي كتبها سنة 1967 والموسومة "معزوفة لدرويش متجول".[19]

يقول عن منهجه الصوفي: "إن التجربة الصوفية بالنسبة لي جزء من كياني... لقد عانيتها قبل أن أولد، فقد كان والدي أحد كبار رجالاتها، وعانيتها طفلا وصبيا، وقبل أن أعرفت الشعر... بل لعلني عرف الشعر من خلال معرفتي بها[20]، ووصفت صوفته بالصوفية الإيجابية لا الصوفية السلبية: "إن صوفية الشاعر أو شاعرية الصوفي الذي أتكلم عنه موقف إنساني إيجابي، واع ومدرك، وليس موقف الدرويش المنجذب على مجموعة من الأفكار المشوشة والأحاسيس التجريدية العمياء، إنه الصوفي الثوري، وليس أبدا ذلك الصوفي التقليدي المتهالك المهزوم"[21] ولعل لذلك ما نلمسه في قصيدة "يوميات حاج إلى بيت الله الحرام"، يصور فيها ضياع الأمة العربية المسلمة، على أثر الهزيمة الكبرى التي مني بها الوطن العربي سنة 1967:

قوافل يا سيدي قلوبنا إليك
تحج كل عام
هياكل مثقلة بالوجد والهيام
تسجد عند عتبات البيت المقام
تقرئك السلام
يا سيدي
عليك أفضل السلام

وفيها يقول أيضا:

يا سيدي عليك أفضل السلام
من أمة مضاعة
خاسرة البضاعة
ويقول:
يا سيدي
منذ ردمنا البحر بالسدود
وانتصبت ما بيننا وبينك الحدود
متنا
وداست فوقنا ماشية اليهود
إلى أن يقول:
واليوم ها نحن
أجل يا سيدي
نرفل في سقطتنا العظيمة
كأننا شواهد قديمة
تعيش عمرها لكي
تؤرخ الهزيمة[22]

هكذا نجد في هذه القصيدة الرائدة التزاما فيتوريا من نوع آخر، ليس الالتزام الإفريقي فحسب، وإنما هو التزام قومي عربي بل إسلامي، يشف عن حنين صوفي.

- نخلص إلى ما انطبع في نفسه من خلال الحرب العالمية، وما انماز به من حيث المزاج الشخصي، شغوفه باصطياد السمك، كان يهرب من قاعات الدرس إلى شواطئ الإسكندرية، هروب من الكتاب المقرر إلى الكتاب المفتوح، هذه فسحة إلى التأمل والتخيل ومحادثة الطبيعة والنفس.

- **<u>شاعرية الفيتوري:</u>**

أشرنا على أن محمد الفيتوري شاعر سوداني، ذلك الشاعر الذي أسهم في تأكيد هوية الشعر العربي من احتوائه على مختلف الموضوعات التي تطرق إليها منذ أن كان وليد واقعه وهاجس وجوده، وأنه بهذه الأعمال الواقعية قد حلق عاليا مما أعطاه قيمة أدبية فنية رائدة.

لقد استحدث شعراء السودان كغيرهم ممن عاصرهم أشكالا فنية جديدة كانت نتيجة المعاناة التي لا تنتهي، مبتعدين عن ذواتهم ليلتحموا بالناس وبمشكلاتهم، ومن ثم توالت أعمالهم في زمن موحد تقريبا، وهي بصفة عامة تعنى بالكادحين في كل أنحاء العالم، وتتحدث عن سوء توزيع الثروة وتتعاطف مع الشعوب المظلومة بخاصة منها الإفريقية[23].

الفيتوري لم يشذ عن شعراء السودان، اختار الكتابة في الشعر الحديث شعر التفعيلة، والذي يرى رواده أن الكتابة فيه لم تكن مجرد تحول على صعيد الممارسة الشكلية للشعر، بقدر ما كان ناتجا عن

ضرورة ملحة لتحول الشعر العربي من بعض الظواهر السلبية التي راقت تطوره مثل: التقريرية والإيضاح والتجزئية التي أدت إلى انقسام الشعر إلى أغراض معروفة.

وشعر التفعيلة انتقل بالقصيدة العربية من سيادة القاعدة العامة إلى التجريب متخذا لغة الإشارة والرمز بديلا عن الوضوح والتقرير[24].

والشعر الحديث بدأ يسمع صوته للعالم العربي في نهاية الأربعينات، وقد شق طريقه بصعوبة نادرة وسط التيارات الأدبية الأصيلة التراثية، وبعد ربع قرن من عمره استطاع أن يوطد أقدمه في الأرض الأدبية ويحتل المكانة الجديدة[25].

إن الدارس لشعر محمد الفيتوري يقف على جملة من الخصائص، نذكر منها:

* يؤمن الفيتوري بأن لا جديد ولا قديم في الشعر، إن كان ثمة من جديد فإنه على مستوى الرؤية الإنسانية الجديدة للواقع الاجتماعي المتغير، يقول: "وبدون الاتحاد الكامل بين عنصري الإيقاع والشكل، والرمز والصورة، والروح والجسد، تفقد الكلمة الشعرية فعاليتها وقدرتها على أن تتحول إلى ميراث"[26].

* يرى الفيتوري أن أصل الكلمة هي أصالة الفكر والعاطفة والإبداع، مما جعله يقول: "إن أسباب انهيار شعرنا الحديث، وسقوط كثير من النماذج الشعرية المعاصرة، إنما مرجعها إلى الضحالة الفكرية والنفسية المترسبة وراء هذا الشعر"[27].

* الشعر عنده التزام، فالكلمة قضية! الكلمة شعب، الكلمة مسؤولية كبيرة يجب أن يتحملها الشاعر وهو يعاني ما يعانيه، يقول الدكتور مصطفى بدوي: "إن التزام شاعرنا بالواقعية يحدوه إلى مواجهة الصراعات الإنسانية والاجتماعية، وحقائق الفن والموت والنضال والحياة"[28].

فالشعب "ملهم الشعراء" والشعب هو الشعر، لذا نراه يراقب ويتفحص ويعاش الواقع، يشرحه ويشير إلى أخطائه.

- الشعر عنده الثورة ضد الظلم، بحيث يعتبر الشاعر شفتا الشعب:

يا شعبنا وخطاك إعصار
وصوت صوت رعد
ويبارق الشهداء فوق ثراك من جد بجد
والشمس حانية عليك، تطل في تيه ووجد
ترنو إليك... وأنت ثورة ثائرين لخير قصد[29]

- الشعر في اعتقاد الفيتوري وحي وإلهام، إلاّ أنه عملية خلق فني (معاناة وصراع وإبداع)، إذ يعاني الشاعر من أقصى درجات القلق والتوتر، شعور بعدم الاستقرار، كما عبر عن ذلك فان جوخ: "شخصا يتآكل قلبه من فعل ظمئه الشديد للعمل"[30].

وإلى مثل هذا يشير الدكتور هني: "إنه لمن الخطأ في الواقع أن نتصور أن نقادنا الأقدمين نظروا إلى الإبداع الفني على أنه شيء هين خاضع خضوعا مطلقا لإرادة المبدع يقبل عليه متى شاء، في سرور ودون أية معاناة أو مكابدة..."[31].

- فكتب الفيتوري أولا عن بشاعة لونه وفقره، فتخلص من مرضه بالتطهير.

- وكتب ثانيا عن بشاعة وقسوة الاستعمار، فأثار الثورة، فكان بهذا فنانا وقائدا ثوريا توفرت في شعره معطيات الجمال والحيوية والإبداع.

- وكتب في قضايا الأمة العربية الملأى بالجراح.

في القصيدة إلى بن بيلا ورفاقه: "القصيدة جاءت في الديوان من الصفحة 358 إلى ص: 361، في أربعين (40) سطرا.

الديوان في طبعته الثالثة (03) يضم: مقدمتان، ثم قصائد جاءت تحت عناوين رئيسية ستة (06).

1) أغاني إفريقيا: 28 قصيدة (من: أحزان المدينة السوداء إلى قصيدة: عندما يتكلم الشعب).

2) أذكريني يا إفريقيا: 18 قصيدة (من: قصيدة أغنية حول الشمس إلى قصيدة: بول روبسي المغني).

3) عاشق من إفريقيا: 30 قصيدة (من: عاشق من إفريقيا إلى قصيدة: حصاد شعب).

4) معزوفة لدرويش متجول: 14 قصيدة (من: معزوفة لدرويش متجول إلى قصيدة: مقاطع فلسطينية).

5) سقوط دبشليم: 30 قصيدة (من: صلاة قبل الأفول إلى قصيدة اعتذار).

6) البطل والثورة والمشنقة: 15 قصيدة (من: يوميات رجل مقتول إلى قصيدة القادم عند الفجر).

الثابت اللساني . اللافت في الديوان من حيث الثابت اللساني، قاموس الحركة والحيوية والتغيير: الثورة، الحرية، الاستشهاد، السجن، الطوفان، الدمدمة، الصحوة، افريقيا، الشهيد، الفرسان، السيوف، المدافع، الطغاة، الاستعمار، السوط، الجلاد... إلخ.

إذ إن موضوع الثورة عند الفيتوري وثيق الصلة بالموضوع الافريقي الرئيس تجسده الكلمات الآنفة الذكر وغيرها ومن الثورة تتفرع مواضيع ثانوية كالمقاومة الاشادة بالأبطال..ذلك أن الموضوع الإفريقي استأثر اهتمام شاعرنا ولعل قراءة عابرة لديوانه تمكن القارئ من الوقوف على ذينك الموضوع الرئيس ومن خلال كل هذا ألفيناه يركز على الثورة والحركة ووجوب الغير ورفض الواقع الاليم إلى درجة أننا ألفيناه في قصيدة: "يوميات حاج إلى بيت الله الحرام" الموجهة إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

* داست فوقنا ماشية اليهود

يا سيدي
تعلم أن كان لنا مجد وضيعناه
بنيه أنت، وهدمناه
يا سيدي علمتنا الحب
فعلمنا تمرد الإرادة
فلعصر في داخلنا جدار
إن لم نهدمه
فلن يغسلنا النهار

حظيت الثورة الجزائرية المباركة في الديوان بقصيدتين على سبيل التخصيص، أما على سبيل العموم فهي تدخل ضمن قصائد الهموم العربية والإفريقية والإنسانية.

القصيدة الأولى: رسالة إلى جميلة[32] في محور: "أذكريني يا إفريقيا" إذ الظاهر من هذا المحور أن العناية موجهة إلى الآخر (المخاطب)، يقول فيها:

السجن لا يسمع يا جميلة
إلا أنقاض المعاول
إلا دوي الزلازل
إلا انفجار الزلازل[33]

إشارة في كل هذا إلى ضرورة الثورة، والتي يشير إليها في الأبيات التالية:

فابتلتا بأدمع[34] الحقد
أم ترى لمحت بين الجبال
طلائع الثوار حول الجبال
وهي تسد الأفق بالأيدي
فاهتز في قلبك حب جميل
مشى حزينا فوق هذي الرمال
حب فتى جزائري نبيل
ما زال حيًّا في صفوف النضال[35]

والقصيدة الثانية وهي موضوعنا الرئيس: "إلى بن بيلا ورفاقه"، محور "عاشق من إفريقيا"، والذي نشتم فيه رائحة العناية بشخص الشاعر نفسه.

القصيدة وردت في أربعين (40) سطرا، ضمن (05) مقاطع، فكرتها الأساس، التجاوب مع ثورة نوفمبر التي داست على جماجم جلاديها من المحتلين الفرنسيين، يقول الدكتور ركيبي:"... وأنها ستدوس على جماجم جلاديها من المحتلين الفرنسيين".[36]

والظاهر أن الثورة في القصيدتين ارتبطت بفرد أو أفراد أصبحوا من الرموز التي تتصل بالثورة وبنضال الشعب كهذه القصيدة اذ يتحدث فيها عن وفد جبهة التحرير الذي اختطفته فرنسا عام 1956 وهو في طريقه من المغرب الى تونس والفيتوري يتخذ من الحادث بداية الكلام عن الثورة والشهداء ويصور كفاح الشعب وتضحياته جيلا بعد جيل صاغ ذلك في أمنية عامة وفي أسلوب بسيط جميل.[37]

إن الثابت اللساني في القصيدة يطال مستوياتها اللغوية، من أدناها إلى أعلاها وقبل أن نلجها نقف مع العنوان والذي يبدو من خلاله أن الشاعر حريص على التواصل مع أبطال الجزائر، إذ صرح بذلك في قصيدة جميلة الموسومة "رسالة إلى جميلة"، ويفهم هذا التواصل ضمنيا وعبر الوقوف على القرائن والدلالة المفتوحة في عنوان قصيدة "إلى بن بيلا ورفاقه" والذي من دلالاته:

رسالة إلى بن بيلا ورفاقه ذلك ما يوحي به الدال "إلى" والمقتضي "من"، (من إلى) الرسالة التي من أركانها أ و ب، مخاطِب ومخاطب والأمر يؤول بالضرورة إلى وجود علاقة ما.

لا أعتقد أن عنوان القصيدة كان اعتباطيا جاء سبهللا، ولكنه كان مختارا عن وعي وقصد: "وقع في شبه الجملة"، ليكون مفتوح الدلالة، متعلق بجملة قد تكون اسمية أو فعلية، ولعل اختيار شبة الجملة ليتأتى للفيتوري إظهار الانكسار أمام أبطال الثورة الذي يتجلى في حركة الكسر سواء في الاسم المجرور أو الاسم المعطوف عليه ينضاف إليه الضمير، فلا غرو إذ نجد ضمن أسطر القصيدة قول الشاعر:

إني أحني رأسي كبرا
إني أخفضه إكبارا[38]

ثم إن اختياره للأسماء دون الأوصاف "جميلة"، "بن بيلا"، لم يكن عبثا، إذ يريدها دعوة للاستماع والإصغاء على الصوت المجلجل العالي، الدعوة للآخر الواعي، الآخر الحر، للآخر الموجود. قالها مدوية في قصيدة: "أغاني إفريقيا".

فاستمع لي... استمع لي
إنما أذن الجيفة صماء الأذن[39]

لندع العنونة، وننزلق على لب الموضوع، ولنبدأ بالمستوى الصوتي، إن الثورة أيا كانت من خصائصها: السمو ورفض الخزعبلات، والعلو والكبرياء والرفعة والصمود والجد والإيجابية، وأصحابها شامخون متسامقون واقفون منتصبون، انتصاب امتداد الفتحة الممدودة ممثلة في ألف المد والتي ترددت في القصيدة بشكل لافت، فتراه وانطلاقا من العنوان بدل أن يكتب بن بله يرسمها بالألف الممدودة "بن بيلا"، تجد ذلك في "رفاقه" الفاء المفتوحة الممدودة "أياديكم" الياء المفتوحة الممدودة "باب" الباء المفتوحة الممدودة، "التاريخ" التاء المفتوحة الممدودة هذا في سطر واحد، "بعظام"، الظاء المفتوحة الممدودة، "الشهداء" الدال المفتوحة الممدودة، "مازالت"، الميم والزاي المفتوحتان الممدودتان، جماجم جلاديها، الميم واللام والهاء المفتوحات والممدودات، إلى أن نصل إلى لفظة "أعلام"، لنجد اللام المفتوحة الممدودة لنحصي ستين

حرفا ممدودا مفتوحا.

ولا أحسب هذا يدل على شيء إلا على الشموخ والعلو والسمو والرفعة، شموخ الثورة والبطولات عامة بله الثورة الجزائرية المباركة، ثورة تضاهي بدر الكبرى، كيف لا وهو يقول:

سبع سنين، وأياديكم تطرق باب التاريخ[40]
سبع سنين، وبلاد جميلة رافعة الرايات
سبع سنين، والنار تضيء خطى الأحرار[41]
يا شعري هل تسمع دمدمة الطوفان
هل تسمع صرخة بن بيلا[42]

إلى أن يقول:

فالثورة، ما زالت تكسو
قمة الأوراس، وتسقيها
والثورة ما زالت تمشي
فوق جماجم جلاديها[43]

إلى أن يصل إلى:

فإذا التاريخ بلا قضبان
وإذا الثورة في كل مكان
تركز أعلام الحرية[44]

ونسجل تواتر الراءات بما يزيد عن الأربعين (40)، والتي من دلالاتها الانحراف، هذا الانحراف الإيجابي الذي تتطلبه الحرية والانعتاق، إذ من غيره ما كانت الثورة وما حققت أهدافها النبيلة، ثم إن الشاعر يكره الجمود والثبات والموت إنه شاعر مفعم بالحياة بحكم تكوينه.

والراء إلى جانب هذا توحي بإيقاع الثورة الهادر، لأنها تقوم لتغيير الواقع السيئ نحو الأفضل، الثورة إنما تكون لمحو وصمة الذل، يقول:

بإرادة مليون ضحية
تنقش في الصخر حكاية جيل من أمجاد
جيل يصحو، وصياح البعث على ميعاد
جيل يحمل في جنبيه عبق الأجداد
جيل لم يرهبه عصر التقتيل والاستشهاد
عصر النقه، عصر الثورات
عصر الأحزان العربية[45]
ويقول: يا بن بيللا
لكن العار، وخيبة سبع سنين
العار (لديجول) وباريس
العار لأعداء الثورة[46]

ويمكن الوقوف في المستوى الصوتي على تواتر السين والصاد والضاد والشين ساكنة أو مفتوحة أو مكسورة أو مضمومة ذلك أن السين[47] صوت أسناني احتكاكي مستمر، صفيري مهموس، والصاد[48]: صوت أسناني، احتكاكي مستمر، مهوس، مفخم والضاد[49]: صوت احتكاكي مستمر، مجهور، مستمر، منحرف، والشين[50]: صوت غاري، احتكاكي مستمر مهموس، لعلك ترى أن مما تشترك فيه هذه الأصوات هو صفة الاستمرار والاحتكاك، وفي بعضها الصفير يرمز الشاعر من خلالها إلى أن الثورة انطلقت وهي مستمرة حتى تحقيق أهدافها ما كان لها ان تتوقف دون ذلك:

سبع سنين، وأياديكم تطرق باب التاريخ
سبع سنين، وبلاد جميلة رافعة الرايات
سبع سنين، والنار تضيء خطى الأحرار
عصبوا عينيه خمس سنين
فالثورة، مازالت تكسو
قمة الأوراس، وتسقيها
والثورة مازالت تمشي

وفي الاحتكاك دلالة على احتكاك واتحاد الإرادة الحسية والمعنوية، واحتكاك الثوار بالشعب للوقوف صفا واحدا في وجه الغاصب الظالم.

وفي الجهر والاستعلاء والصفير، ذلك الدوي الذي لا ينقطع لتقتلع جذور الاحتلال وفي الصاد والقاف والضاد والدال والخاء، صوت صادم قاطع يرفع المنهج المتبع قبل الثورة، لتكون طريقا آخر يتعامل به مع العدو والذي لا يفهم إلا لغة ولعلعة السلاح[51] زاد من وقعه اجتماع الحروف الحادة في القصيدة من: دال، وطاء، وضاد ونون، وسين وصاد وشين وجيم[52].

خاتمة:

حسبنا هذا، ولنقارب المستويات الأخرى في مرحلة لاحقة من البحث، ذلك أن المستوى الإفرادي المتمثل في البعد المعجمي سواء على مستواها الصرفي أو الدلالي يحيلنا إلى ألفاظ الثورة والغضب: تطرق، ضحية، الصخر، يصحو، النقمة، الثورة، تمزق، صرخة، الطوفان، القضبان، الأغلال، جماجم، جلاد، ... إلخ.

وعلى المستوى التركيبي السطحي والعميق، نلغي غلبة الجمل الفعلية والتي تعزز الاستمرار والتجدد دون أن ننسى لجوء الشاعر إلى العدول:

أيا دبشليم شطر باب التاريخ
تبني حرما للحرية
تنقش في الصخر حكاية جيل من أمجاد
... النار تضيء خطى الأحرار
والثورة ما زالت تمشي
فإذا التاريخ بلا قضبان

كل هذا يعكس حركة الثورة كيف بدأت بالطرق وانتهت بفك القضبان، حكاية ثائر متمثل في المجاهد أحمد بن بله ورفاقه، ومن خلال كل هذا يركز الفيتوري إلى انتمائه إلى الأرض المباركة بهذه التأكيدات:

إني أحني رأسي كبرا
إني أخفضه في إكبار

فأنا إفريقي
وجزائريين بيلا افريقية
إلى أن يقول:
وإذا الثورة في كل مكان
تركز أعلام الحرية
في أرضي... في إفريقية

ومما يلفت في القصيدة هذا النداء وإن كان في لفظه للبعيد مكانا ولكنه ضمنيا للقريب قلبا وروحا يا بن بيلا.

فالصورة واقعية، حسية مرئية مسموعة، صورت تحركات الثورة الجزائرية، ومعاناة بطلها كفاح دام سنين عديدة، سقي بدم الشهداء، واستمر بخطى الأحرار، وصرخة الأحرار خلف القضبان، فلم يجد ذلك بل جلب للطغاة الخيبة والعار.

هكذا فالفيتوري يصف الثورة المباركة وصفا رائعا، فيه الحركة والصوت يمتزجان في لوحة معبرة جعلت منه رسام كلمات بحق.

الفيتوري شاعر انساني يشيد كغيره وهم كثر بالمحبة والسلام ويزرع الورود جاعلا من القارة السمراء موضوعا يرى من خلاله ازمته الحادة وتداعياتها وناسخا من كلماته لغة تفيض بالإحساس الشفيف والوجدان الصافي[53]، هذا هو الفيتوري والثورة الجزائرية المباركة نراه يمزج بين الافراد وكفاح الشعب الجزائري رافضا ومدينا للاحتلال الفرنسي .

الهوامش:

1 ديوان محمد الفيتوري، محمد الفيتوري، ط: 03، 1979، دار العودة، بيروت، ص: 358- 361
2 ساليت من القبائل السودانية الكبيرة تشتهر بالفروسية.
3 والدته من أسرة شريفة من قبيلة الجهمة العربية الحجازية التي هاجرت إلى صعيد مصر.
4 ينظر محمد الفيتوري، ص: المقدمة، ومحمد الفيتوري، الضائع الذي وجد نفسه، إيمان يوسف بقاعي، ط: 01، 1994/1414، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص: 06.
5 محمد الفيتوري الضائع الذي وجد نفسه، مرجع سابق، ص: 05.
* دميم: قبيح المنظر، صغير الجسم.
6 نفسه، ص: 13.
7 ديوان الفيتوري، مصدر سابق، ص: 15-16.
8 نفسه، ص: 07-11.
ينظر، الفيتوري الضائع، مرجع سابق، ص: 20-21.
9 "الفلكة" قطعة من جريد مشدود إلى طرفيها قطعة من حبل، تستعمل في تعليق المعاقَب بضربه على قدميه، تستعمل عند شيوخ الكتاتيب بخاصة.
10 ينظر، محمد الفيتوري شاعر الحب والوطنية، منيف موسى، دار الفكر العربي، ط: 01،2001، بيروت، لبنان، ص: 5-10.
11 جدته زهرة العجوز الإفريقية.
12 ينظر،محمد افينتوري الضائع، مرجع سابق، ص: 2/ 46.
13 ينظر، نفسه، ص: 80/1.
14 ينظر، ديوان الفيتوري، المقدمة "حول تجربتي الشعرية".
15 ديوان الفيتوري، المقدمة "حول تجربتي الشعرية".
16 ينظر، الديوان، ج: 03، قصيدة "أغاني إفريقيا".
17 ينظر، ديوان الفيتوري، المقدمة "حول تجربتي الشعرية".
18 ينظر،ديوان الفيتوري، ص: 34-35.وكذا ينظر القصيدة في الديوان ص: 453-455.
19محمد الفيتوري، الضائع الذي وجد نفسه، مرجع سابق، ص: 38
20 نفسه، ص: 39
21 ينظر، الالتزام في الشعر العربي، أحمد أبو حاقة، دار العلم للملايين، ط: 01،1979، بيروت،لبنان، ص: 670-675.
22 ينظر، الشعر السوداني في دراسة تاريخية منذ الثورة المهدية، صالح فاخر، (مقال)، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، السنة السابعة، العدد: 07، 2001، طرابلس، ليبيا، ص: 38
23 أبجدية القراءة النقدية (دراسة تطبيقية في الشعر العربي المعاصر)، آمنة بلعلى، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص: 04

24 ينظر، ديوان الفيتوري، مصدر سابق، (الغلاف).
25 نفسه، (المقدمة)
26 محمد الفيتوري الضائع الذي وجد نفسه، مرجع سابق، ص: 46.
27 دراسات في الشعر والمسرح، مصطفى بدوي، ط: 1979،02،الهيئة المصرية العامة للكتاب، دار المعرفة، ص: 27.
28 ينظر، ديوان الفيتوري، مصدر سابق، (قصيدة حصاد شعب) ص: 445.
29 ينظر، محمد الفيتوري الضائع الذي وجد نفسه)، مرجع سابق، ص: 53.
30 نظرية الإبداع في النقد العربي القديم، عبد القادر هني، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص: 291.
31جميلة بوحيرد من المجاهدات الجزائريات.
23 ينظر،ديوان الفيتوري ، مصدر سابق، ص: 299.
33عينا جميلة و هي في السجن.
34 ينظر، ديوان الفيتوري، مصدر سابق، ص: 300.
35 الأوراس في الشعر العربي، عبد الله ركيبي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،1982،ص: 25.
36 الشعر في زمن الحرية دراسات أدبية ونقدية، عبد الله ركيبي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1599، ص: 47-51.
37 ينظر، ديوان الفيتوري، مصدر سابق، ص: 359.
38 ينظر، ديوان محمد الفيتوري، مصدر سابق، قصيدة أغاني إفريقيا، ص: 72-80.
39 ينظر، ديوان الفيتوري، مصدر سابق، ص: 358.
40 نفسه، ص: 359
41 نفسه، ص: 360.
42 نفسه، ص: 361.
43 نفسه، ص: 361.
44 ينظر، الديوان، سابق، ص: 358-359.
45 ينظر، الديوان، سابق، ص: 360.
46 المعجم الأساسي العربي، حرف السين، ص: 600.
47 نفسه، حرف الصاد، ص: 715.
48 نفسه، حرف الضاد، ص: 761.
49 نفسه، حرف الشين، ص: 663.
50 ينظر، الانفعالية والإبلاغية في البيان العربي، عصام كمال السيوفي، ص: 257، ط: 01، 1986، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
51 ينظر، الصوتيات والفونولوجيا، مصطفى حركات، ص: 122-123، دار الأفاق، الأبيار، الجزائر، (د.ت).
52 فرحان اليحيى http://an-nour.com/index.php?option=com_content&task=view&id=12256.